

فلا
التنوير الإسلامي

((٦٨))



الشيخ

عبد الرحمن الكواكبي

هل كان علمائنا؟!

تأليف
د. محمد عمار



الشيخ
عبد الرحمن الألوائي
هل كان علمانياً؟

تأليف
د. محمد حمادة



اسم الكتاب: الشرح مع الرجوع إلى القرآن من كتاب علماني

المؤلف: د. محمد مصطفى

الترجمة: د. داليا محمد إبراهيم

تاريخ النشر: الطبعة الأولى أغسطس 2006

رقم الأناقة: 2006 / 4366

الترجمة الدولية: ISBN 978-977-14-1436-6

الناشر: الشركة المصرية للنشر والإعلام الإلكتروني
1444444 (01) 3472864 - 3472865 (02) - 3472866 (02) - 3472867 (02)
www.nahdetmiser.com - البريد الإلكتروني: info@nahdetmiser.com

الطبعة: 80 نسخة لكل فرع الترجمة - عدد النسخ: 1000
02-3472867 (02) - 3472868 (02) - 3472869 (02) - 3472870 (02)
www.nahdetmiser.com - البريد الإلكتروني: info@nahdetmiser.com

الترجمة الدولية: 978-977-14-1436-6
02-3472867 (02) - 3472868 (02) - 3472869 (02) - 3472870 (02)
www.nahdetmiser.com - البريد الإلكتروني: info@nahdetmiser.com

الترجمة الدولية: 978-977-14-1436-6
www.nahdetmiser.com - البريد الإلكتروني: info@nahdetmiser.com

الترجمة الدولية: 978-977-14-1436-6
www.nahdetmiser.com - البريد الإلكتروني: info@nahdetmiser.com

الترجمة الدولية: 978-977-14-1436-6
www.nahdetmiser.com - البريد الإلكتروني: info@nahdetmiser.com

الترجمة الدولية: 978-977-14-1436-6
www.nahdetmiser.com - البريد الإلكتروني: info@nahdetmiser.com



شركة نهضة مصر للنشر والطباعة 1998

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالصور أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

تقديم

للتغريب والاستلاب الحضارى العديد من الطرق والوسائل
والأساليب:

■ فمنها الأسلوب المباشر والصريح، الذى يعرض أصحابه
النموذج الغربى فى النهوض والتقدم، قائلين تعالوا إلى هذا
النموذج، فهو الأقدر على تحقيق التقدم والنهوض للشرق
الإسلامى. بل ولكل أنحاء العالمين. ولقد أثبت ذلك بنجاح
كبير فى عالم الشعوب الغربية. وليس صحيحاً أن هناك
خصوصيات ثقافية وحضارية تمايز بين الأمم والشعوب.
فالطريق - كما قال الدكتور طه حسين فى مرحلة تبشيره
بالنموذج الغربى - «واحدة واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها
عوج ولا التواء، وهى واحدة فذة ليس فيها تعدد، وهى أن
نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أنداداً،
ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، حلوها
ومررها، ما يحب منها وما يكره، ما يحمد منها وما يلعن.
والعقل الشرقى هو كالعقل الأوروبى، يونانى الطابع
والتكوين. لم يغير القرآن من يونانيته، كما لم يغير الإنجيل
من يونانية العقل الأوروبى» [مستقبل الثقافة فى مصر ج ١
ص ٢١، ٢٢، ٢٩، ٤٥].

■ وغير هذا الطريق - الواضح والصريح - للتغريب، هناك طرق
يمعن أصحابها فى النفاق والإخفاء والتزييف والتلبيس. وذلك

عندما يذهبون إلى دعوى علمنة الإسلام ذاته.. ومن ثم يقدمون علماء الإسلام، ومشاريعهم الإصلاحية باعتبارها دعوات علمانية.. ثم يقولون لنا:

- أليس هؤلاء هم زعماء الإصلاح في عالم الإسلام؟ إنهم علمانيون، يثبتون النموذج العلماني في التقدم والإصلاح.. فتعالوا نسير وراءهم في هذا الطريق - العلماني - فليس هناك طريق آخر سواه.

وإذا كنا قد عرضنا وفندنا وقضحنا هذا الأسلوب من أساليب الخبث العلماني في كثير مما كتبنا دفاعاً عن «التمايز الحضاري» للإسلام ونموذجه في التقدم والنهوض.. وكان من حظ هذه السلسلة «في التنوير الإسلامي» تلك الدراسة التي قدمناها عن (ابن رشد بين الغرب والإسلام) - والتي فندنا فيها محاولات المتغربين مسخ هذا الفيلسوف المسلم.. والمتكلم الإسلامي.. والفقيه المالكي.. وقاضي قضاة الشرع في قرطبة.. وذلك بتقديمه على أنه «مادي.. وملحد.. وعلماني.. وتنويري.. بالمعنى الوضعي الغربي».

إذا كنا قد قدمنا تلك الدراسة عن ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨م] - في الحلقة الخامسة من هذه «السلسلة».. فإننا نقدم اليوم هذه الدراسة عن المصلح الإسلامي الكبير الشيخ عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢م].

ذلك الذي حاول الحزب السوري القومي، وباحثه المثابر الأستاذ «جان داية» - ومن قبله زعيم الحزب «أنطون سعادة» [١٩٠٤ - ١٩٤٩م] - حاولوا «سرقة» الكواكبي من موقعه المرموق في صفوف زعماء الإصلاح الإسلامى، وتقديمه فى صورة العلمانى، الذي يدعو أمته إلى سلوك طريق العلمانية الغربية للتقدم والنهوض.

لقد كان الكواكبي من أوائل زعماء الإصلاح الذين كتبنا عنهم - منذ مرحلة الدراسة فى كلية دار العلوم فى عقد الخمسينيات من القرن العشرين - ثم جمعنا وحققنا ودرسنا أعماله الفكرية الكاملة التى تصدر لها الطبعة الثالثة - مزيده فى الدراسة وفى النصوص - هذا العام سنة ٢٠٠٦م.

وبهذه المناسبة، نقدم فى هذه «السلسلة» - هذه الدراسة التى ترفع الظلم عن هذا المصلح الإسلامى الكبير، وترد الافتراء العلمانى عن هذا العالم الفذ من علماء الإسلام فى عصرنا الحديث..

والله من وراء القصد.. نسأله - سبحانه - التوفيق والسداد..

د. محمد عتار

بطاقة حياة

- عبدالرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م].
هو: عبدالرحمن أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي.
- ولد في حلب سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ م، من أسرة «شريفة» ذات نفوذ علمي وإداري.. تتوارث الإشراف على نقابة «الأشراف» ويرتفع نسبها إلى الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه.
- ولقد تعلم الكواكبي العلوم الموروثة - علوم العربية والشريعة الإسلامية - كما تعلم العلوم الحديثة.. وأجاد - مع العربية - اللغتين التركية والفارسية.
- واشتغل الكواكبي بالصحافة، وهو في الثانية والعشرين من عمره، في صحيفة «فرات» - التي كانت تصدر بالتركية - في مناخ قرض فيه العثمانيون سياسة «التتريك» على الولايات العربية «العثمانية» في المشرق العربي.. ثم أصدر - للمرة الأولى - صحيفة عربية - في حلب - هي (الشهباء).. فلما أغلقها الأتراك أصدر صحيفة (اعتدال) فلاقته ذات المصير.
- ولقد احتل الكواكبي عدداً من المناصب الإدارية والاقتصادية الهامة في ولاية «حلب» واحترف التجارة فترة من الزمن.. كما كان مرجعاً للمحاماة في القانون.. وعمل «عرضحالجياً» يحرر ظلامات المظلومين ضد ولادة الأمور الأتراك!

■ دخل السجن سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢ م متهمًا بمحاولة اغتيال
الوالي التركي على حلب، وحكم عليه بالإعدام من القضاء
التركي في حلب.. فلما ثارت جماهير الولاية، وافقت الدولة
العثمانية على إعادة محاكمته أمام محكمة بيروت، فبرأته
المحكمة من التهمة التي حاولوا إلصاقها به، وهي الاتفاق مع
دولة أجنبية ضد الدولة العثمانية

■ هاجر الكواكبي - سرًا - إلى مصر سنة ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م..
ونشر فصول كتابه الفذ والغريد «طبائع الاستبداد ومصارع
الاستعباد» في صحيفة «المؤيد» بدون توقيع

■ طبع بمصر كتابيه «أم القرى»، وهو «مذاكرات» محاضر
اجتماعات مؤتمر جمعية أم القرى - الذي عقد بمكة - وحضره
ممثلون للأمة الإسلامية لدراسة أسباب تخلف المسلمين، وسبل
إنهائهم.. وكذلك «طبائع الاستبداد».. نشرهما باسم مستعار،
هو «الرحالة ك»:

■ قام برحلة إلى المشرق، زار فيها العديد من بلاد آسيا وإفريقيا
الإسلامية. ومات وهو يعتزم القيام برحلة مماثلة إلى بلاد
المغرب الإسلامي.. وكتب عن رحلته هذه كتابًا ضاعت أصوله
قبل أن يرى النور.

■ عندما انتقلت روحه إلى بارئها - فجأة - في ٧ ربيع الأول سنة
١٣٢٠ هـ / ٤ يونيو سنة ١٩٠٢ م - صادر مندوب من قبل
السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ /

١٨٤٢ - ١٩١٨ م) جميع الأوراق الخاصة بالكواكبي، حيث حُملت إلى السلطان، ولم يظهر لها أثر فيما بعد، وضمنتها أصول كتابين لم ينشرا، هما «العظمة لله» و«صحائف قریش».

■ وفي فكر الكواكبي، اجتمعت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية مع الدعوة إلى تمييز الأمة العربية بالريادة والقيادة في المحيط الإسلامي، فامتزجت - عنده - العروبة بالإسلام، كأوضح ما تكون.. ومنه صدرت الدعوة لإعادة الخلافة إلى الأمة العربية، مع الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي تقيم اتحادًا تضامنيًا وتعاونيًا بين كل الدول والسلطنات الإسلامية.. لتجديد عز الإسلام.

■ وكان مذهب الكواكبي في الإصلاح هو مذهب المدرسة الإحيائية التجديدية، التي تدعو إلى البدء - في الإصلاح - بالأصول قبل الفروع.. وبالتربية للأمة وصولاً لسياسة الدولة وبالإصلاح الديني قبل الإصلاح الإداري والسياسي.. فالأمة قبل الدولة.. والدعوة قبل السياسة.

■ يضعه فكره الاجتماعي بين الرواد الأوائل لدعاة الاشتراكية في تراثنا العربي الإسلامي الحديث. والاشتراكية عنده نابعة من القرآن الكريم ومن الخلق العربي الذي صاغه الإسلام.. ومن المواخاة التي أقامها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

■ عندما حمل المشيعون جثمان الكواكبي ليواروه قبره - فى مقابر «باب الوزير» بسفح جبل المقطم بالقاهرة، كتبوا على قبره كلمة «الشهيد» لتشير بأصابع الاتهام إلى موته مسموماً بتدبير من السلطان عبدالحميد"

وعندما جددت مصر قبره. وتقلت رفاته إلى قبره الجديد.. كتب عليه بيتان من الشعر، لشاعر النيل حافظ إبراهيم (١٢٨٧ - ١٣٥١هـ / ١٨٧١ - ١٩٣٢م) هما:

هنا رجل الدنيا. هنا مهبط التقى

هنا خير مظلوم. هنا خير كاتب

قفوا واسرءوا أم الكتاب وسلموا

عليه. فهذا القبر قبر الكواكبي

دعوى علمانية الكواكبي!

لقد بدأت علاقتي بفكر الكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) في منتصف خمسينيات القرن العشرين، عندما كنت طالباً بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة قرأت كتابيه «طبائع الاستبداد» و«أم القرى». وكتبت عنه وعن فكره بحثاً لـ «أعمال السنة» بالكلية. ثم نشرت هذا البحث في مجلة «الغد» - عدد يناير سنة ١٩٥٩ م

وفي منتصف ستينيات القرن العشرين، أعدت الطبعة الأولى لأعماله الكاملة، مع التقديم لها بدراسة وافية عن حياته وأفكاره. وهي الطبعة التي صدرت عن دار الكاتب العربي بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م

وعند ذلك التاريخ، بدأت المراسلات وتوثقت العلاقات بيني وبين حفيد الكواكبي - وسميه - المرحوم الأستاذ الجليل الدكتور/ عبدالرحمن الكواكبي، الذي كان مثلاً فذاً للمثقف المتواضع، والنموذج الأمثل في الوفاء لجده العظيم، يبحث وينقب عن آثاره الفكرية المفقودة. ويتواصل مع المهتمين بفكره وتراثه من كل البلاد وجميع المذاهب والاتجاهات والديانات.

ولقد أعاننى هذا الإخلاص والدأب والتفانى - الذي توجته علاقة صداقة حميمة بين أسرتينا - على أن تأتى الطبعة الثانية من هذه الأعمال الكاملة - التي أصدرتها المؤسسة العربية

الدراسات والنشر ببيروت سنة ١٩٧٥م - مزيدة ومشتمة على ما لم تشمله الطبعة الأولى من هذه الأعمال.

وعبر المراسلات والمقابلات حدثني المرحوم الدكتور/ عبدالرحمن الكواكبي عن جهود الباحث اللبناني المسيحي «جان داية» - عضو الحزب السوري القومي الاجتماعي - في البحث عن آثار الكواكبي المفقودة، خاصة أعداد الصحيفتين اللتين أصدرهما مبكراً بمدينة حلب - صحيفتي «الشهباء» و«اعتدال» - ثم تم التوصل بيني وبين «جان داية» - عبر المراسلات - ووصلتني العديد من المقالات التي نشرها في الصحف عن الكواكبي.

وعندما تم العثور - في ألمانيا - على بعض أعداد الصحف التي أصدرها الكواكبي، نشر «جان داية» كتاباً عن «صحافة الكواكبي»، ضمنه محتويات أعداد تلك الصحف، وصورة «زنگرافية» لصفحاتها - ولقد نشرت هذا الكتاب مؤسسة (فكر) للأبحاث والنشر ببيروت سنة ١٩٨٤م.

وخلال هذه المراسلات وعبر هذه المقالات لـ «جان داية»، وضحت الفكرة المحورية الحافزة لباحث مسيحي سوري قومي على أن يهتم هذا الاهتمام الدؤوب بفكر الكواكبي وأثاره الفكرية. وهي فكرة السعي لإثبات علمانية الكواكبي، وريادته لفكرة فصل الدين عن الدولة، وعلمنة الإسلام في عصرنا الحديث!!

كانت تلك هي «الفكرة - الدعوى» التي حفزت «جان داية» - عضو الحزب السوري القومي الاجتماعي إلى الرهينة في محراب

فكر الكواكبي، ليثبت علمانيته، التي خالف فيها وبها - كما يقول - كل العلماء وزعماء الإصلاح في الإسلام»

ومنذ اللحظات الأولى لإعلان «جان داية» عن هذه الدعوى، حدثني عنها المرحوم الدكتور عبد الرحمن الكواكبي.. بل لقد توافق مع «جان داية» على الاحتكام إلى الفصل في هذه الدعوى. ولقد أبدت - يومئذ - ملاحظات عامة ترفض هذا الادعاء - ادعاء علمانية الكواكبي.. وريادته الدعوة لفصل الدين الإسلامي عن الدولة - انطلاقاً من آثاره الفكرية، التي تضعه ضمن أعلام مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامي الحديثة التي دعت إلى تجديد الدين الإسلامي لتتجدد به دنيا المسلمين، والتي أكدت على أن سبيل الإصلاح في المسلمين هو الإسلام، لأنه السبب المفرد لسعادة الإنسان في المعاش والمعاد..

لكن «جان داية» مضى في طريقه، يجمع «الأدلة» على علمانية الكواكبي، حتى أصدر لهذه الدعوى كتاباً خاصاً، جعل عنوانه «الإمام الكواكبي.. فصل الدين عن الدولة». نشرته دار سوراقيا للنشر بالمملكة المتحدة سنة ١٩٨٨م.

فلما جاءت هذه المناسبة - مناسبة إصدار الطبعة الثالثة من «الأعمال الكاملة للكواكبي» - كان لابد من دراسة «حيثيات» هذه الدعوى الخطيرة - دعوى علمانية الكواكبي - لتمثل هذه الدراسة لهذه القضية التقديم الجديد لهذه الطبعة الجديدة.. المزيد في النصوص والوثائق.. والمنقحة في الدراسة والتقديم

لقد كنا - وصعنا كل المشتغلين بالعلم والفكر الإسلامى فى عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر - على يقين من أن أول من ادعى علمنة الإسلام هو المرحوم الشيخ على عبدالرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ / ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م) فى كتابه (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٩٢٥ م.. ولقد أثبتنا فى الدراسات والوثائق التى نشرناها حول هذا الكتاب تراجع الشيخ على عبدالرازق عن هذه الدعوى (انظر فى ذلك كتبنا «الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين» و«معركة الإسلام وأصول الحكم» و«الإسلام بين التنوير والتزوير»).

لكن.. ها هو الباحث «جان داية» - عضو الحزب السورى القومى الاجتماعى - يعود بدعوى علمنة الإسلام إلى سنة ١٨٩٩ م. وليس سنة ١٩٢٥ م. وإلى عبدالرحمن الكواكبي، بدلاً من الشيخ على عبدالرازق. وها هو يقول

«إن الكواكبي هو رائد القائلين بمبدأ فصل الدين عن الدولة. على سعيد الأمانة والكتاب المسلمين. فلم يبرز أى كاتب مسلم قبله قال بضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية. مما يرجح الاستنتاج بأن الكواكبي هو الذى شق هذه الطريق الطويلة الشاقة. وفى جريدة (المقطم) جاء تعبير الكواكبي عن فصل الدين عن الدولة وإيمانه به أكثر وضوحاً وقوة مما هو عليه فى جريدته (الشهباء) والاعتدال - وكتابه - (أم القرى) وأطباع الاستبداد»^(١)

(١) جان داية [الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة] ص ١٧، ١٨، ٢٦ طبعة المملكة المتحدة سنة ١٩٨٨ م

■ بل إن «جان داية» يطلعنا في كتابه هذا، الذي خصصه لهذه الدعوى، على حقيقة أكثر إثارة، وهي أن هذه الدعوى - علمنة الكواكبي ومن ثم الإسلام - ليست مجرد اجتهد من هذا الباحث - «جان داية» - وإنما هي دعوى الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه ومنظره أنطون سعادة (١٩٠٤ - ١٩٤٩م). فهي دعوى الحزب، الذي ينتمى إليه «جان داية» - والذي تمثل العلمنة محور «أيديولوجيته» القومية السورية - وعن هذه الحقيقة يتحدث «جان داية» في كتابه هذا ناقلًا عن «الأعمال الكاملة لأنطون سعادة» فيقول

لقد تطرق أنطون سعادة إلى جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) ومحمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) فانتقدتهما بشدة لأنهما قالا بالدولة الدينية بعد أن رفضا مبدأ فصل الدين عن الدولة.

ثم قارن سعادة بينهما وبين الكواكبي - الذي دعا الناطقين بالضاد إلى «الوفاق الجنسي دون المذهبي» - فقال - أي سعادة -

لا يظن أحد أن جميع مفكري المحدثين هم من نوع الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني. فهذان المفكران الرجعيان غير السوريين لا يمكنهما ادعاء احتكار التفكير المحدثي العصري. وقد قلنا إن مفكرًا سوريًا محمديًا هو السيد الفراتي عبد الرحمن الكواكبي لم يذهب حيث إماما الرجعية المذكوران. مع أنه أحق بهداية النفوس منهما إذ تظروا إلى الحياة الاجتماعية والسياسية من جهة التفكير السوري المتقدم لقد

نظر الكواكبي في مقتضيات الدين والدنيا، فقال فيها هذا القول الفصل الذي تتبناه الحركة السورية القومية بحرقته»^(١).

هكذا تحدث أنطون سعادة عن الكواكبي، باعتباره علمانياً بل وسورياً قومياً مثل سعادة وحزبه! ومن ثم فهو تقدمي... وليس رجعيّاً مثل محمد عبده وجمال الدين الأفغاني

ولأن «حان داية» قد نذر الكثير من جهده لإثبات هذه الدعوى، وجعلها أبرز مشاريعه البحثية، وكتب حولها كتابين «صحافة الكواكبي» و «الإمام الكواكبي - فصل الدين عن الدولة» فضلاً عن العديد من المقالات والمحاضرات، فلا بد من الوقوف - بموضوعية وأناة - أمام «الأدلة» التي ساقها لإثبات هذه الدعوى الخطيرة والمثيرة. ولقد استقصينا هذه «الأدلة» فوجدناها سبعة - نعرضها - بألفاظ حان داية - ثم يتبع كل واحد منها بالرد والتقعيد

■ الدليل الأول قول الكواكبي في «طوائع الاستعداد» ص ٢٠٨ من الأعمال الكاملة طبعة سنة ١٩٧٥م - «هذه أمم أوستريا [النمسا] وأمريكا قد هداهما العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري، فما بالنا لا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو تبنيها»

(١) المرجع السابق ص ٣٦، ٣٧ - وحان داية يفتخر عن [الأثار الكاملة لأنطون سعادة] ص ٢٨٨ - طبعة ١٩٦٠، ١٩٤٢ د

ونحن عندما نقرأ عبارات الكواكبي هذه في سياقها، نجد أنها موجهة إلى العرب غير المسلمين، فقبلها يقول: «يا قوم، وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين... الذين تجمعهم بمواطنيهم المسلمين روابط الوطنية والقومية». والكواكبي يدعوهم إلى الاتحاد مع المسلمين على أساس هذه الروابط الجامعة. وإلى نزع فتيل الخلاف الديني، وليس في هذه العبارات ما يعنى فصل الدين الإسلامي عن الدولة الجامعة للرعية متعددة الديانات. فالمرجعية الإسلامية لهذه الدولة هي قانون وضعى بالنسبة للنصارى، الذين تأمرهم نصرانيتهم أن يدعوا الدولة لقيصر، لأنه ليس في نصرانيتهم مرجعية سياسية ولا قانونية لهذه الدولة.

والكواكبي يستطرد في هذا النص فيقول: «للأعاجم والأجانب».

«دعونا يا هؤلاء ندير شأنا، نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالإخفاء، ونتواسى في الضراء، وننساوى في السراء، دعونا ندير حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمة سواء».

وكلام الكواكبي هذا لا شبهة فيه للعلمانية التي تفصل الدين عن الدولة، بل هو التطبيق لموقف الإسلام في إسلامية الدولة. حتى وكأنه يدعو إلى تطبيق دستور دولة النبوة - في المدينة المنورة - الذي نص على أن: «يهود أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومن تبغنا من يهود فإن لهم النصر

والأسوة مع البر المحض من أجل هذه الصبغة غير مظلومية ولا متناصر عليهم. مع النصيح والنصيحة والبر دون الإثم»^(١).

وتطبيق لعهد رسول الله ﷺ لنصارى نجران سنة ١٠هـ/ ٦٣١م. الذى أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وكل ما يملكون، على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»^(٢).

فالدين الإسلامى - وليس العلمانية التى تنحى الدين - هو الذى يجعل رعية الدولة وأمتها وشعبها سواء فى كل حقوق المواطنة، مع جعل الحكم فى الاختلاف الدينى لله وحده يوم الدين، فالمساواة - التى يتحدث عنها الكواكبي - فى حقوق المواطنة، هى ثمرة للإسلامية الدولة، وليس لعلمانياتها.

أما إشارة الكواكبي - فى هذا النداء الموجه إلى العرب غير المسلمين - إلى «الاتحاد الوطنى دون الدينى» فليس المراد منها استبعاد الدين الإسلامى والجامعة الإسلامية لأنه يتحدث إلى النصارى العرب، وإنما المراد دعوتهم إلى الحذر من الوقوع فى شباك «الاتحاد الدينى» مع المستعمرين النصارى، والولاء للأجانب الطامعين فى استعمار بلادهم بحجة أن جامعة القديس بالنصرانية توجد بين النصارى العرب وهؤلاء المستعمرين الغربيين.

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ - ٢١ تحقيق

د. محمد حمد الله الحيدر آبادى طبعة القاهرة ١٩٥٦ د.

(٢) المصدر السابق ص ١٢١ - ١٢٨

ويفسر هذا النص وهذا الموقف ملاسبات واقع ذلك التاريخ.. فلقد
 كانت فرنسا الكاثوليكية - رغم علمانيتها المتوحشة في بلادها -
 تنصّب نفسها حامية للكاتوليك العرب - الموارنة - وكانت روسيا
 القيصرية الأرثوذكسية تنصّب نفسها حامية للأرثوذكس العرب -
 وخاصة في الشام - فأراد الكواكبي بهذا النداء الموجه إلى العرب غير
 المسلمين تحذيرهم من الوقوع في شباك غواية «الاتحاد الديني»
 بينهم وبين هؤلاء المستعمرين وتنبئهم إلى أن روابطهم اللغوية
 العربية والحسية - أي القومية - والوطنية التي تجمعهم مع
 مواطنيهم المسلمين، هي الروابط الطبيعية الموحدة لهم مع أمتهم
 العربية وليس الاتفاق في الدين أو المذهب مع الأجانب المستعمرين
 ويؤكد هذا المعنى وهذا التفسير ما جاء في نداء الكواكبي هذا
 - للعرب غير المسلمين - بعد السطور التي أوردناها منه والتي
 اقتصر عليها «جان داية» من قوله لهؤلاء العرب البصاري
 مجذراً من الغواية الاستعمارية باسم الاتحاد في الدين
 «أدعوكم، وأخص منكم النجباء للتبصر والتبصير فيما إليه
 المصير ليس مطلق العربي أخف استحقاذاً لأخيه من الغربي؟
 هذا الغربي قد أصبح مادياً، لا دين له غير الكسب، فما
 تظاهره مع بعضنا بالإخاء الديني إلا مخادعة وكذب!»
 هؤلاء الفرنسيين يطاردون أهل الدين، ويعملون على أنهم
 يتناسونه بناء عليه لا تكون دعواهم الدين في الشرق إلا كما
 يغرد الصياد وراء الأشباك..

(١) [الأعمال الكاملة للكواكبي] ص ٣٠٨

فالاتحاد الدينى الذى يحذر منه الكواكبي، ليس الجامعة الإسلامية - التى كان من أبرز دعائها - ولا المرجعية الإسلامية للدولة، وإنما هو غواية الاستعمار لنصارى العرب بدعوى الاتحاد الدينى والمذهبى بينه وبينهم.

تلك هى الحقيقة التى غفل عنها الباحث «جان داية» وزعيمه أنطون سعادة، وحزبه السوري القومى الاجتماعى.. فكان هذا الافتراء على الكواكبي بادعاء وقوفه مع فصل الدين الإسلامى عن الدولة وريادته لهذه الدعوى فى الفكر الإسلامى الحديث.

■ والدليل الثانى لـ «جان داية» هو قول الكواكبي عن «جمعية أم القرى»

«إنها لا تتدخل فى الشئون السياسية مطلقاً، فيما عدا إرشادات وخطارات بمسائل أصول التعليم وتعليمه».

ولا علاقة لهذا الموقف بفصل الدين عن الدولة، وإنما هو مذهب الإمام محمد عبده ومدرسته الإحيائية: مذهب التركيز على «سياسة التربية» قبل «سياسة الإدارة للدولة» وإصلاح الأصول التى تجدد إسلامية الأمة كطريق لإصلاح الدولة وإسلاميتها. فالدعوة والتربية قبل السياسة - التى هى من الغروع - والأمة قبل الدولة - التى هى مستخلقة عن الأمة - وهذا هو المذهب والمنهاج الذى جسده «جمعية العلماء المسلمين فى الجزائر» و«الجمعية المحمدية» فى إندونيسيا. فهو إصلاح بالإسلام.. ولكن المتميز فيه - عن الأحزاب السياسية - هو نقطة

البدء ومنطقة التركيز.. وترتيب الخطوات والأولويات على طريق الإصلاح الإسلامى الشامل

ولقد نص الكواكبي على هذه الحقيقة - حقيقة البدء بسياسة التربية وصولاً إلى الانتظام السياسى تبعاً للدين - فى «أم القرى» فقال:

«ولا يغفونك أن مطمح نظر الجمعية منحصر فى النهضة الدينية فقط، وتوهم أن يأتى الانتظام السياسى تبعاً للدين»

فهو مذهب فى ترتيب أولويات الإصلاح - الإصلاح الدينى - بالتربية والدعوة وإصلاح مناهج الفكر والمؤسسات التى تصوغ العقل وصولاً للإصلاح الإدارى والسياسى الذى يأتى عندئذ مؤسساً على قاعدة اجتماعية إسلامية وليس مذهباً فى فصل الدولة عن الإسلام»

■ والدليل الثالث - جان دايه - هو قول الكواكبي فى «طبائع الاستبداد» ص ٢٢١ من «الأعمال الكاملة»:

«هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث فى شخص واحد أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها بإتقان؟ ولا إتقان إلا بالاختصاص وفى الاختصاص، كما جاء فى الحكمة القرآنية ﴿فاجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه﴾ [الأحراب ٤]، ولذلك لا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة».

وهذا الحديث عن التخصص - فى السياسة والعسكرية والإدارة.. والفقه والقضاء.. والتربية إلخ.. إلخ - هو الذى طبقته

الدولة الإسلامية حتى في عصر النبوة - رغم بساطة الدولة - وليس في التخصص ما يعنى فصل الدين عن الدولة - ولقد كان حذر الكواكبي من الاستبداد الذي يؤدي إليه الجمع بين التخصصات المختلفة في شخص واحد حتى لا تتكرر تجربة الكهانة الكنسية التي احتكرت الدين والدنيا جميعاً في «الأكليروس». ولم يكن حذراً من المرجعية الإسلامية للدولة بحال من الأحوال. قال تخصص ضرورة حياتية وعملية. والمرجعية الإسلامية مرعية في جميع التخصصات.

■ والدليل الرابع لـ «جان داية» هو قول الكواكبي في «طبائع الاستبداد» ص ٢٢٠ من «الأعمال الكاملة».

«هل يكون للحكومة - ولو القضائية - سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين والجنسية واللغة والعادات والآداب العمومية ولا تتداخل الحكومة في أمر الدين ما لم تنتهك حرمة» وهل السياسة الإسلامية سياسة دينية أم كان ذلك في مبدأ ظهور الإسلام كالإدارة العرفية عقب الفتح».

وليس في كلام الكواكبي هذا ما يعنى فصل الدين عن الدولة.

فالدين الإسلامي هو الذي يحرم ويمنع السيطرة على العقائد والضمائر ليس فقط من قبل الدولة، بل وحتى من قبل علماء الدين. وحتى المعصوم عليه السلام لم يجعل الله له - في منطقة الضمائر

والاعتقاد القلبي - سيطرة ولا سلطاناً - سوى سلطان الموعظة -
ولقد قال الله - سبحانه وتعالى - لرسوله ﷺ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ

مذَكِّرٌ ۚ ۲١﴾ أنت عليهم بمسيطر ﴿[الغاشية: ٢١، ٢٢]

والإمام محمد عبده - الذي يعدّه أنطون سعادة رجعيّاً لأنه
لم يقل بفصل الدين عن الدولة - هو الذي يعلن رفض الإسلام
أية سيطرة بشرية على الضمائر والعقائد فيقول: «إن الإسلام
لم يعرف تلك السلطة الدينية التي عرفتها أوربا، فليس في
الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى
الخير، والتنفير عن الشر، وهي سلطة خولها الله لكل المسلمين،
أدناهم وأعلامهم ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة
عند المسلمين بما يسميه الأفرنج اثيوكرتيك أي سلطان إلهي،
فليس للخليفة - بل ولا للقاضي أو المفتي أو شيخ الإسلام -
أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام، وكل سلطة تناولها
واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قدرها الشرع الإسلامي،
فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجود، بل إن قلب
السلطة الدينية والاتباع عليها من الأساس هو أصل من أجل
أصول الإسلام»^(١)

فالإسلام قد جاء ثورة على السلطة الدينية وتحريراً للضمائر
والعقائد والسلطة المدنية التي قررها إنما هي بقرار الشرع،
وليست من العلمانية النائرة ضد الشرع والدين!

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٢٢٣ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٨ - دراسة
وتحقيق: محمد عمارة - طبعة بيروت - ١٩٧٢ م

ولقد جمع الإسلام بين الثورة على السلطان البشرى على القلوب والضمائر والعقائد وبين تقرير المرجعية الإسلامية للدولة المدنية - أى رفض علمانية الدولة - ومحمد عبده - الذى تحدث عن رفض الإسلام أى سلطان بشرى على العقائد والضمائر وتحرير الأحكام - هو الذى تحدث عن إسلامية الدولة «لأن الإسلام دين وشرع فهو قد وضع حدوداً ورسم حقوقاً، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق. وضون نظام الجماعة والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ على يده فى عمله، فكان الإسلام كما لا للشخص. وألفه فى البيت. ونظاماً للعقل. امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم تدخل فيه»^(١)

■ وحديث الكواكبي - هذا الذى استدل به «جان داية» - عن أن من وظيفة الدولة: حفظ جامعة الدين ومنع انتهاك حرمة. دليل على اتحيازه لإسلامية الدولة، وليس لعلمانيته.. وشاهد على أن من وظائف الدولة - لإسلاميتها - عند الكواكبي - حراسة الدين، وحفظ الجامعة الدينية.. وهى الوظيفة التى بصَّ عليها تعريف علماء الإسلام للخلافة الإسلامية - حراسة الدين، وسياسة الدنيا بهذا الدين..

■ والدليل الخامس لـ «جان داية» هو قول الكواكبي فى «أم القرى» بمعرض نقده للدولة العثمانية

(١) المصدر السابق ص ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٨٧.

«ولما وُضع قانون تشكيل الولايات، لم يرض المتعممون، حتى جعلوا فيه قاضى المسلمين، وكذلك مفتى المؤمنين فى كل بلد، عضوين فى مجلس الإدارة، يحكما بأنشاء مما يصادم الشرع، كالربا والضريبة على الخمر والرسوم العرقية وغيرها مما كان الأليق والأنسب بالإسلامية أن يبقى العلماء بعيدين عنه، كما أن القسيس - بل الشماس - لا يحضر مجلسا يعقد فيه زواج أو تفريق مدنيان، ولا يشهد فى صك دين داخله الربا، فضلا عن أن يقضى أو يحضى بصفة رسمية كهنوتية أمثال ذلك من الأعمال التى تضاد دين النصرانية».

وقول الكواكبي هذا شاهد ضد «جان دايه» لا شاهد معه، فهو لا يعيب على علماء الدولة العثمانية الاشتراك فى مجالس الإدارة والأحكام، وإنما يعيب عليهم الحكم «بأنشاء كثيرة مما يصادم الشرع» الإسلامى.. فهو موقف ضد العلمنة والعلمانية.. وليس معها، ودعوة إلى أن تكون القوانين فى الدولة شرعية، لا مصادمة للشرع.. وحض على عدم مخالفة العلماء ودوائر الحكم والإدارة «الإسلامية» بتعبير الكواكبي، أى دعوة لإسلامية الدولة وإسلامية القضاء.. والإدارة.. والقانون.

■ والدليل السادس لـ «جان دايه» هو قول الكواكبي فى «أم القرى»:

«لقد زعم كثير من حكماء تلك الأمم - الأوروبية - أنهم ما أخذوا فى الترقى إلا بعد عزلهم سنون الدين عن سنون الحياة.

وجعلهم الدين أمراً وجدانياً محضاً لا علاقة له بشئون الحياة الجارية على نوااميس الطبيعة».

والخطأ الغريب لـ «جان داية» أنه جعل «الزعم» الذي زعمه فلاسفة العلمانية الأوربية - والذي أورده الكواكبي على سبيل الحكاية باعتباره «زعمًا» - جعله «جان داية» رأى الكواكبي في أن الدين مجرد أمر وجداني لا علاقة له بشئون الحياة!

وهو خطأ كبير.. وغريب من هذا الباحث، جعل «استدلاله» هذا «زعمًا» لا علاقة له بحقيقة فكر الكواكبي حول علاقة الدين بالدولة!

■ أما الدليل السابع لـ «جان داية» وهو أهم الأدلة عنده على علمانية الكواكبي - فهو ما كتبه كاتب بتوقيع «مسلم حر الأفكار» في جريدة «المقطم» - أغسطس ١٨٩٩ م - حول الجامعة الإسلامية وقصل الدين عن الدولة، وهي مقالات ادعى «جان داية» أن كاتبها هو عبدالرحمن الكواكبي.

ويكفي لإثبات أن ما جاء في هذه المقالات هو «الدليل العمدة» لـ «جان داية» على علمانية الكواكبي. ومن ثم علمنة الإسلام، أنه قد خصص لها في كتابه: «الإمام الكواكبي» فصل الدين عن الدولة» نحو ١٠٠ صفحة، في كتاب مجموع صفحاته ١٥٨ صفحة، أي نحو ثلثي الكتاب!

ولقد وقفنا أمام هذه المقالات وقفات فاحصة وامتانية، استخدمنا فيها المنهج العلمي في فقه البصوص ونقدها. فثبت

لنا ثبوتاً يقينياً أن هذه المقالات لا علاقة لها بالكواكبي . بل إن كاتبها - في أغلب الظن - ليس مسلماً ، رغم توقيعها بعبارة «مسلم حر الأفكار» !

ولست أدري كيف غفل باحث جاء مثل «جان داية» عن أن يقرأ في صلب هذه المقالات العبارات التي تفصح - بأبلغ عبارة - عن أن كاتبها لا يمكن أن يكون هو المصلح الإسلامي العظيم عبدالرحمن الكواكبي

ومن الأدلة على هذه الحقيقة التي غفل عنها «جان داية»

١ - ما جاء في رد الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٣ - ١٣٥٤ هـ - ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م) على هذا «مسلم حر الأفكار» من التحذير من الاغترار . بكلام عارق غادر يصف نفسه بأنه «مسلم حر الأفكار وما جاءته حرية إلا من ريق الكفار» ص ١٢٨ من كتاب «جان داية» .

٢ - فلما رد «مسلم حر الأفكار» على الشيخ رشيد رضا جاء في رده - ص ١٤١ من كتاب جان داية - تعليقاً على عبارة «وما جاءته حرية إلا من ريق الكفار» التساؤل «فمن هم الكفار الذين يغنيهم الأوربيون الذين يعيبنى على الدرس في مدارسهم» .

فلقد كشفت هذه العبارة اعتراف هذا «مسلم حر الأفكار» بأنه واحد من المثقفين اللبنانيين الذين تعلموا ودرسوا في

مدارس الإرساليات القصصية. وفي هذا دليل قاطع على أنه لا يمكن أن يكون هو الكواكبي الذي درس في المدرسة الكواكبية الإسلامية بحلب.

٣ - ولقد عاد الشيخ رشيد رضا في رده على هذا الرد - ص ١٤٥ من كتاب «جان داية» - فأشار إلى حقيقة هذا الاكتشاف الذي غفل عنه - أيضا - جان داية. وذلك عندما قال عن هذا «مسلم حر الأفكار» «إن كتابته تشيد عليه إحدى الغميرتين

- عدم فهم الإسلام.

- واعتقاد أن تركه سعادة للأنام.

وهو مع ذلك، ينفي التهمة عن نفسه بالاعتزاز بالأوربيين والتبجح بالانتماء إليهم. والأخذ بتعاليمهم وإنكار إطلاق لفظ الكفار عليهم».

ولا يمكن لقارئ - فضلا عن باحث مثل جان داية - أن يقول إن أوصاف «الاعتزاز بالأوربيين والتبجح بالانتماء إليهم والأخذ بتعاليمهم وإنكار إطلاق لفظ الكفار عليهم» يمكن أن تجعل هذا الكاتب مسلحا. فضلا عن أن يكون هو الشيخ عبد الرحمن الكواكبي أحد أنفة الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث

٤ - ثم يعود الشيخ رشيد رضا - في هذا الرد على الرد - ص ١٤٦، ١٤٧ من كتاب جان داية - ليعيد الحديث عن هذا الاكتشاف

- الذي حسم القضية - اكتشاف أن الد«مسلم حر الأفكار» هذا هو واحد من خريجي مدارس الإرساليات التنصيرية في لبنان فيقول الشيخ رشيد: «إنني ما عبته على الدرس في مدارس الأوربيين» ثم يختم الرد موجهاً إليه القول « فالزم شأنك . مكتفياً بعلمك الأوربية، والسلام على من اتبع الهدى»^١

فكاتب مقالات «المقطم» - الداعية إلى فصل الدين عن الدولة - هو خريج إحدى مدارس الإرساليات التنصيرية في لبنان.. وليس الشيخ عبدالرحمن الكواكبي.

والشاهد الصادق على هذه الحقيقة هو نصوص المقالات التي نشرتها «المقطم» والتي غفل الباحث «جان داية» عن الوقوف أمامها!

ولست أدري كيف حدث منه ذلك!! اللهم إلا أن تكون شهوة الانتصار لدعوى زعيمه ومثله الأعلى «أنطون سعادة» غلظة الكواكبي هي التي غلبت على ملكة الباحث المدقق فيه!

وقديماً قالوا إن الحب يعمي ويصم.. فنعود بالله من حب كهذا.. خاصة في القضايا الخلافية الشائكة.. مثل دعوى علمانية هذا العلم البارز من أعلام الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث.

٥ - ثم إن الذين كتبوا - في (المقطم) - داعين إلى فصل الدين عن الدولة - قبيل نشر مقالات هذا الد«مسلم حر الأفكار» - كانوا

جميعاً كتاباً مسيحيين، حنا الطرابلسي - «المقطم في ١٢،
 ١٧» أغسطس سنة ١٨٩٩ م - وميشيل حكيم - المقطم في ١٥
 أغسطس ١٨٩٩ م» - ولم يكتب كاتب مسلم واحد - باسمة
 الصريح - حول هذا الموضوع في ذلك التاريخ. ولم يعرف في
 ساحة الفكر الإسلامي من الكتاب المسلمين من كان يتبنى
 هذا الاتجاه - فصل الدين عن الدولة - في تلك المرحلة من
 تاريخ فكرنا الإسلامي

فهل كان هذا «مسلم حر الأفكار» كاتباً مسيحياً تخفى تحت
 هذا الوصف الكاذب المستعار؟

إن مقال هذا الـ «مسلم حر الأفكار» في «المقطم» - ٣ أغسطس
 سنة ١٨٩٩ م - يشي بأنه كاتب مسيحي، وليس مسلماً. فهو
 يتحدث عن «الدعوات الدينية المسكونية» - كتاب «جان داية»
 ص ١٢٠ - وتعبير «المسكونية» هذا تعبير مسيحي ومصطلح
 كنسي لا يستخدمه المفكرون المسلمون

٦ - ثم إن هذا الكاتب يتهم دعاة الجامعة الإسلامية - التي كان
 الكواكبي من أعلامها - بالثبم التي اجتهد الكواكبي كثيراً في
 دفعها عن الإسلام والمسلمين. يتهم هذا الـ «المسلم حر
 الأفكار» دعاة الجامعة الإسلامية بأنهم يرون - أن الخطر
 لا يزول عن الإسلام إلا بتمزيق شمل النصاري، وأن عز الإسلام
 لا يكون إلا بذل النصاري - كتاب «جان داية» [الإمام
 الكواكبي - فصل الدين عن الدولة] ص ١٢١ - وهذه دعاوى

واتهامات لا يقول بها إلا المسيحيون الذين تعلموا التعصب
ضد الإسلام والمسلمين في مدارس الإرساليات التبشيرية
التي اعترف هذا الـ «مسلم حر الأفكار» بأنه قد تربى وتعلم
فيها.. ولا يمكن لعاقل أن يتصور صدور هذه الاتهامات
للمسلمين - «تمزيق شمل النصارى» - و«ذل النصارى» - من
المصلح الإسلامى السيد عبدالرحمن الكواكبي

الإسلام والعلمانية

وإذا كانت دعوى «علمانية الكواكبي» قد سقطت «أرلتها السبعة» هذا السقوط المدوي» - على هذا النحو الذي أوردناه - فجدير بالذكر أن الشيخ محمد رشيد رضا قد انتهز فرصة الرد على هذا «مسلم حر الأفكار» لينفي عن علماء الإسلام القول بالعلمنة. وليؤكد أن هذه الدعوى قد وقفت «حتى ذلك التاريخ عند الكتاب النصارى» الذين أرادوا إزاحة الإسلام عن أن يكون المرجعية للدولة التى يعيشون فيها. ولما لم يكن لديهم بديل نصارى للدولة والإدارة والسياسة والقانون والاجتماع - ولأنهم أقلية بين الرعية التى تدین أغليبيتها بالإسلام - فلقد أرادوا إزاحة الإسلام بالعلمانية الغربية، التى تعلموها فى مدارس إرساليات التبصير - التى تخرجوا منها «جيشًا متفانيًا فى خدمة فرنسا وحضارتها» على حد تعبير أحد القناصل الفرنسيين ببيروت فى ذلك التاريخ»

انتهز الشيخ رشيد رضا تلك الفرصة، ليؤكد على هذه الحقيقة.. وعلى أن العلمانية لا يمكن أن تكون مقبولة فى إطار الإسلام والمسلمين. فقال:

«إن «الأهرام» و«المقطم» متفقان على أن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية باسم الدين مضرّة، وغير موصلة إلى الغاية، وأنه لا سبيل إلى ترقى الأمة الإسلامية إلا باتباع خطوات أوربا، كما فعلت اليابان»

و«المؤيد» رد عليهما قولهما الأول - ولم يبد رأياً جديداً، إلا أنه وافق على أن مسلك الكتاب المسلمين في الدعوة الدينية مفيد، كما أن الأخذ بالفنون والصناعات الأوربية مفيد مع ذلك.

ولكن، قد ظهر في «المقطم» قول جديد في مقالة نسبت إلى «مسلم حر الأفكار» لم يتابع به قائله مسلماً، ولن يتابعه عليه مسلم، لأنه ناسف لبناء الدين الإسلامي، ومقوض لعمود بنيانه، وهو زعم أن الدين والدولة أمران متباينان يجب أن ينفصل أحدهما عن الآخر ولقد وجد للإسلام أعداء اجتهدوا في كل عصر بمحوه، أو إضعافه، منهم من حاول إفساد العقائد بالتأويل، ومنهم من وضع الأحاديث الكاذبة، ومنهم من سهل للملوك طريق الاستبداد، ومنهم ومنهم، ولكن مجموع مفااسدهم ومضراتهم لن تبلغ بعض ما يرمى إليه هذا القول الخبيث الذي لم يخطر في بال إبليس، فهو أبلغ قول بشير إلى أحكم رأي لمحو السلطة الإسلامية من لوح الوجود، قاتل الله قائله، ولا كثر فيمن يذعنون للإسلام من أمثاله [كتاب جان داية الإمام الكواكبي: فصل الدين عن الدولة] ص ١٣١، ١٣٢

هكذا أعلن الشيخ رشيد رضا أن الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة قد تفوقت على كل دعاوى المفسدين للإسلام من الأعداء عبر التاريخ، وأنها قد تفوقت على أحلام إبليس.

ثم مضى الشيخ رشيد ليؤكد على رفض الإسلام - بحكم طبيعته كمنهاج شامل - للعلمانية فقال «لقد عرّف علماء المسلمين الدين بأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم

إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل وإن شئت قلت: إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية».

وقواعده عندهم ثلاث.

١ - تصحيح العقائد

٢ - تهذيب الأخلاق

٣ - إحسان الأعمال

والأعمال قسمان عبادات، ومعاملات، ومن الثاني الأحكام بأنواعها - قضائية ومدنية وسياسية وحربية.

أما الدين عند النصارى، فهو - كما في دائرة المعارف - «عمارة عر مصموم الموائيس الصائبة لنسبة الإنسان إلى الله أو يبين صفات تلك النسبة» وهو - كما ترى - لا علاقة له بالأمور الدنيوية ولا بالأحكام والسلطة، ومن المشهور أن الديانة النصرانية مبنية على الخضوع لأية سلطة حكمت أصحابها؛ لما في الإنجيل من أن سلطة الملوك إنما هي على الأجسام الفانية، وأن سلطة الدين على الأرواح فقط، فيجب على كل متبع لهذا الدين أن يدين لكل سلطة ويذعن لكل شريعة حكمته. بخلاف الدين الإسلامي فإنه مبنى على السلطة والغلب

إن الدين الإسلامي جامع لمصالح المعاش والمعاد، ومبنى على أساس السلطتين الزمنية والروحية، وإن الديانة النصرانية على خلاف ذلك، وإن الخليفة هو رئيس المسلمين القائم على مصالحهم الدينية والدنيوية. وإن كل حكومة تخرج عن طاعته

الشرعية فهي منحرفة عن صراط الإسلام، وإن القول بفصل الحكومة والدولة عن الدين هو قول بوجوب محو السلطة الإسلامية من الكون ونسخ الشريعة الإسلامية من الوجود، وخضوع المسلمين إلى من ليس على صراط دينهم ممن يسمونهم فاسقين وظالمين وكافرين. فإن القرآن العزيز الذي هو أساس الدين يفرع دائما إذاً من يل يناديه من أعماق قلوبهم قائلاً بلسان عربي مبين ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة ٤٤] ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة ٤٥] و﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة ٤٧]

ونحن نقول للذين يدعوننا إلى فصل الدين عن الدولة والتفريق بين السلطة والخلافة لأجل تأييد الجامعة الإسلامية إن كنتم تدعوننا هذه الدعوة جاهلين معنى هذه الألفاظ عندنا فلها نحن أولاء قد بيناها لكم فارجعوا عن دعوتكم، فقد علمتم أن قياس الإسلام على النصرانية قياس مع الفارق، فإن فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية هو أصل النصرانية. وقد كان رؤساء الدين تعدوا الحدود وتسلقوا عروش السلاطين والملوك مخالفين صاحب الدين الذي

قد جاء لا سيف ولا رمح ولا

فرس ولا شئ يباع بدمهم

بأوى المغارة مثل راعى الضأن را

على المصالح فى السرير الأعظم

فلا بدع إذا ترقى الدين بانصراف رؤسائه الى خدمته وتركهم
الاشتغال بما ليس منه فى شيء. ونحن والنصارى فى هذا الأمر
على طرفى نقيض. فإننا إذا تلونا تلوهم فيه نكون قد تركنا
نصف ديننا الذى هو السباح الحافظ للنصف الباقي

كلا. إن الدين كله يكون بهذا العمل عرضة للاضمحلال ومهددا
بالزوال. لا حرم أن ما تدعوننا إليه هو أقرب طريق لإعدام
(الجامعة الإسلامية). فكيف جعلتموه طريق إيجادهما وهو أقوى
علل تنقائها. فأتى تقنعوننا بأنه علة إسعادها.

وبعد أن فصل الشيخ رشيد رضا هذا الفصل الحاسم فى
القضية. فميز بين الإسلام والنصرانية فى الموقف من السياسة
والعلاقة بالدولة. فهما فى ذلك على طرفى نقيض. ومن ثم، فإن
العلمانية إذا كانت طبعية فى المجتمعات النصرانية، فإنها
الهادمة لجماع الدين فى المجتمعات الإسلامية.

بعد هذا الفصل.. عاد الشيخ رشيد إلى هذا الداء «مسلم حر
الأفكار» الداعى إلى فصل الدين عن الدولة فشكك فى صدق
انتسابه إلى الإسلام.. وقال:

«علينا ألا نغتر بكلام حارق وغادر. يصف نفسه بأنه «مسلم
حر الأفكار» وما جاءت حريته إلا من رق الكفار. فإن كان اتخذ
لقب المسلم ذريعة لهدم منار الشريعة. فكأين من منتسب مثله

للإسلام ينتهك حرمانه بالفعل لا بالكلام، ويساعد الأجانب على
نقض أساسه، وإطفاء نبراسه، متبجحاً بأنه من الأحرار
المتمدنين، البراء من لوثة التعصب للدين.

ربما كان الحامل لبعض الكتاب المسيحيين على اقتراح ما
ذكر هو اعتقادهم بأن زوال السلطة الشرعية الإسلامية هو الذي
يساوى بين طائفتهم وبين المسلمين، ويخدم تيران الغلو في
التعصب، فيتفقون على إعلاء شأن الوطن، ويخدم كل ديه من
الوجهة الروحية التي لا مثار فيها للتنافر والتفاخر، ويسهل
عليها أن تبين لهم خطأهم في اعتقادهم هذا فنقول

١- إن بناء الشريعة الإسلامية قام على قاعدة العدالة والمساواة
بين المسلمين وغيرهم في الأحكام والحقوق المعبر عنها
بهذه الجملة التي يناقشها الإسلام خلفاً عن سلف، وهي
«لهم ما لنا وعليهم ما علينا» وقد دللنا التاريخ على أن
الحكومات الإسلامية كانت تراعى هذه القاعدة بحسب
تمسكها بالدين قوة وضعفاً ومن قابل بين مساواة أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب الإمام علياً صهر النبي وربيه
وابن عمه برجل من آحاد اليهود في المحاكمة، وانتقاد علي
عليه بقوله له «يا أبا الحسن» وعنه التكنية إخلالاً بالمساواة؛
لما فيها من التعظيم وبين ما هو جارٍ اليوم في فرنسا من
التحامل على «دريغوس» وهو من أكابر عظماء اليهود، حتى
إنهم حاولوا قتل وكيله الذي يحامى عنه، وهم أصحاب العلم
الذي ينطق بالحرية والعدالة والمساواة، يظهر له الفرق بين

المسلمين في بدايتهم والأوربيين في نهاية مدنيّتهم،
فالشريعة في نفسها عادلة، ولا يضر المسيحيين أن
مواطنيهم المسلمين يعتقدون أنها سماوية، بل هو ينفعهم.
وهم لا فرق عندهم بين الشرائع: إذ دينهم يوجب عليهم
اتباع أية شريعة حكموا بها

٢ - إن الترقى الدينى والمدنى الذى نقصده من إحياء «الجامعة
الإسلامية» يتوقف على التهذيب وقيام الأفراد بما عليهم من
الحقوق والواجبات لمن يعيشون معهم. وهذا القول لا يخالف
فيه أحد

ومعلوم أن المسلمين لا يعتقدون بحق ولا واجب إلا إذا كان
مُبينًا في شريعتهم ومأخوذًا من أصول دينهم، فإذا فصل بين
الدين والدولة كان جميع ما تكلفهم به الدولة من الحقوق
والواجبات غير واجب الاتباع في اعتقادهم، فإذا أخذوا به في
العلانية لا يأخذون به في السر، ولا يتم تهذيب الأمة ما لم يكن
الوازع لها عن الشر والحامل لها على الخير ثابتًا في نفسها مقرًا
في اعتقادها، فخير للمسيحيين أن يحكم المسلمون بشريعة
ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سرًا وجهزًا،
ويدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يرتقى المسلمون بل يتدلون
ويهيطنون، كما علم بالاختبار والمجاهدة، فقد أنبأ التاريخ أن
مبدأ الخلل والضعف الذى ألم بنا كان من إهمال وظائف الخلافة
والخروج بها عن معناها الذى هو حراسة الدين وسياسة الدنيا،
ولن يعود للإسلام مجده إلا بإحياء منصب الخلافة واتفاق

المسلمين على إمام واحد يعتقدون وجوب الخضوع له سرّاً
وجهرًا، ولا إمام اليوم للمسلمين بهذا المعنى إلا القرآن الكريم،
فيجب على من يهمة ترقية شئونهم أن يدعوهم به إلى العلم
والعمل، ونفض غبار الجهل والكسل، والقيام بمصالح المعاش
والمعاد، على ما تقتضيه سنة الترقى والإسعاد، فهو إمام كل
إمام، وكما كان المبدأ في ترفيهم كذلك يكون الختام^{١١}»

هكذا سقطت جميع «الأدلة» التي حاول بها جان داية -
وحزبه السوري القومي - علمنة الكواكبي، وهكذا رأينا كيف
كانت مقالات «المقطم» فرصة لكشف الشيخ رشيد رضا زيف
انتساب صاحبها إلى الإسلام. فضلاً عن أن يكون هو المصلح
الإسلامي العظيم الشيخ عبدالرحمن الكواكبي

(١١) جان داية [الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة] ص ١٣١، ١٣٢، ١٣٦، ١٣٩ -
وهو ينقل عن [المدار] - انظر في [المدار] رشيد رضا «تحرير الكلمة عن مواضعه
رد على مسلم خير الأفكار - السدة الثانية» ص ٢٥ - ٣٨٤ - ٣٩١، ٢٦، ٢٧ - سم
الثاني سنة ١٢١٧ هـ - ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٩ م

الكواكبي والفصل بين السلطتين

لكن.. إذا كانت دعوى الحزب السوري القومي الاجتماعي - وباحته جان دابة - علمنة الكواكبي، قد سقطت وذهبت إلى غير رجعة بعد أن انهارت - في هذه الدراسة - «أدلتها» السبعة، فما هي حقيقة - الخلاف بين الشيخ محمد رشيد رضا وبين الكواكبي حول علاقة السلطة الدينية بالسلطة السياسية؟ - وهو الخلاف الذي أشار إليه الشيخ رشيد في رثائه للكواكبي بمجلة «المصار» - فقال: «وقد كنا معه على وفاق في أكثر مسائل الإصلاح، حتى إن صاحب الدولة مختار باشا الغازي (١٨٣٢ - ١٨٩٩م) اتهمنا بتأليف الكتاب «أم القرى» - عندما اطلع عليه - وربما ستر إلى المسائل التي خالفنا الفقيه «الكواكبي» فيها - في هامش الكتاب عند طبعه - وأهمها الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية».

فما هو هذا الفصل الذي قائل به الكواكبي بين السلطتين الدينية والسياسية؟ وهل هو العلمانية، التي تفصل الدين عن الدولة؟

■ لقد كان الكواكبي ناقدًا نقدًا شديدًا - بل وحادًا - للأتراك العثمانيين. وكان ملحقًا بالانحياز كله إلى العرب فهم - عنده - «أقدم الأمم اتباعًا لأصول تساوي الحقوق وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية. وأعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية وأهدى الأمم لأصول الصعينة الاشتراكية ومن

(١) [المنار] المجلد الخامس - الجزء السابع ص ٢٧٩ - عند ربيع الثاني سنة ١٣٢٠هـ

- ٧ مايو سنة ١٩٠٣م

أحرص الأمم على احترام العهود عزةً، واحترام الذمة إنسانية، واحترام الجوار شهامة، وبذل المعروف مروءة. وأنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين وقُدوةً للمسلمين، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداءً، فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً، ولذلك قررت «جمعية أم القرى» أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية، بل الكلمة الشرقية»^(١)

■ وكان الكواكبي - كذلك - حريصاً على بقاء السلطنة العثمانية دولة جامعة لكثير من بقاع العالم الإسلامي، كما كان داعية إلى تحديدها وتقويتها وإصلاح أعوجاجها لتواجه مطامع الغرب الاستعماري في ولاياتها.

■ وتوفيقاً بين موقفه الناقد للأتراك، وبين انحيازه الشديد للعرب جاء في ملحق مذكرات «جمعية أم القرى» الاقتراح التنظيمي الذي يبقى على الدولة العثمانية دولة إسلامية المرجعية والفقه والقانون، ويفصل الخلافة - في ذات الوقت - عن الأتراك، ويعيدها إلى العرب - في مكة - سلطة سياسية على الحجاز، وسلطة روحية على سائر المسلمين.

ولقد جاء في هذا «الملحق» عن هذا الاقتراح التنظيمي الذي صاغه - في الحقيقة - أحد الأمراء الذين اطلعوا على فكرة الكواكبي - ولم يصغ الكواكبي نفسه - جاء فيه اقتراح

١- إقامة خليفة عربي قرشي مستجمع للشرائع في مكة

(١) [الأعمال الكاملة] ص ٣٥٧، ٣٥٨ طبعة سنة ١٩٧٥ م

٢- يكون حكم الخليفة، سياسيًا، مقصورًا على الخطّة الحجازية، ومربوطًا بشورى خاصة حجازية

٣- الخليفة ينوب عنه من يرأس هيئة شورى عامة إسلامية

٤- تتشكل هيئة الشورى العامة من نحو مائة عضو منتخبين،

مندوبين من قبل جميع السلطنات والإمارات الإسلامية، وتكون

وظائفها منحصرة في شئون السياسة العامة الدينية فقط

٥- تجتمع الشورى العامة مدة شهرين في كل سنة قبيل موسم

الحج

٦- ٧- ٨-

٩- ترتبط بيعة الخليفة بشروط مخصوصة ملائمة للشرع.

وبناء على أنه إذا تعدى شرطًا منها ترتفع بيعته، وفي كل

ثلاث سنين يعاد تجديد البيعة

١٠- انتخاب الخليفة يكون مفوضًا بهيئة الشورى العامة

١١- ١٢- ١٣- ١٤- ١٥- ١٦- ١٧-

١٨-

أما وظائف الشورى العامة فيقتضى ألا تخرج عن تمحيص

أمهات المسائل الدينية التي لها تعلق مهم في سياسة الأمة،

وتأثير قوى في أخلاقها ونشاطها، وذلك مثل فتح باب النظر

والاجتهاد تمحيصًا للشرعة، وتيسيرًا للدين. إلخ. إلخ.

ويمثل هذا الترتيب حل مشكلة الخلافة، ويتسهل عقد اتحاد

إسلامي تضامني تعاوني فيترك التركة الخلافة لأهلها -

[العرب] ويحتفظون ببقية سلطنتهم، ويكتفون بشرف خدمة نفس الحرمين. وبذلك يتم تجديد عز الإسلام...»^(١)

هذا هو الاقتراح التنظيمي الذي جاء في ملحق «مذكرات» جمعية أم القرى - وهو في الأساس من إنشاء أحد الأمراء - للكواكبي في ثفاياه تأكيد على ضرورة إعادة الخلافة إلى العرب - خلافة إسلامية شرعية - وبقاء الدولة العثمانية سلطنة كما هي، لإقامة الجامعة الإسلامية - «عقد اتحاد إسلامي تضامني تعاوني» و « تجديد عز الإسلام ».

ولقد كانت هذه هي نقطة الخلاف بين الشيخ رشيد رضا وبين الكواكبي: فصل الخلافة الإسلامية - العربية - عن السلطنة العثمانية، ولا علاقة لنقطة الخلاف هذه بالعلمانية، وفصل الدين عن الدولة - التي ادعاها الباحث «جان داية» وأنطون سعادة والحزب السوري القومي الاجتماعي - فهدف الكواكبي من وراء هذا التنظيم

١ - إحياء الخلافة الإسلامية - التي طوى العثمانيون صفحتها - وإعادتها إلى العرب.

٢ - إقامة الجامعة الإسلامية، بعقد اتحاد إسلامي تضامني تعاوني بين الدول والسلطنات الإسلامية

٣ - تجديد عز الإسلام.

فأين هي العلمانية - يا ترى - في هذه الأهداف؟

(١) المصدر السابق ص ٣٦٤ - ٣٦٧

الرفض الكواكبي للعلمانية

وإذا كان لابد - في ختام هذه الدراسة - من إبراز بعض «النصوص الكواكبية» التي تشهد على انحياز الرجل إلى إسلامية الدولة - ومن ثم تنفي عنه أية شبهة من شبهات العلمانية - فيكفي أن نعلم:

١ - أن كتاب الكواكبي «أم القرى» موضوع كله لغرض «النهضة الإسلامية» إذ هو عبارة عن «صيط مغاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية» والجمعية التي أقامها هذا المؤتمر كان مقصدها إنهاض الأمة الإسلامية - وليس فقط العربية - جمعية «إذا نادى مؤننها . حتى على الفلاح . في رأس الرجاء . يبلغ أقصى الصين صداد» [الأعمال الكاملة ص ٢٤٣].

ومن شروط عضوية «جمعية تعليم الموحدين» التي أقامها مؤتمر «أم القرى» لإنهاض الأمة - الشرط الثاني، بعد سلامة الحواس - «الإسلامية» من أي مذهب كان من مذاهب أهل القبلة، والشرط الثالث هو «العذالة» بحيث يكون العضو غير مجاهر بمعصية سرعية اجتماعية» [الأعمال الكاملة ص ٣٣٧].

كما أن لهذه الجمعية - التي مركزها مكة - فروعاً وشعباً تغطي العالم الإسلامي، «القسطنطينية» و«مصر» و«كلكتة».

و«دلهى» و«سفغافورة» و«تونس» و«مراكش» وغيرها من
المواقع المناسبة. [الأعمال الكاملة ص ٣٣٩].

كما تخصص الجمعية منشوراتها وإعلاناتها أربع جرائد من
أشهر الجرائد الإسلامية السياسية:

١ - عربية في مصر .

٢ - تركية في القسطنطينية .

٣ - فارسية في طهران .

٤ - أوردية في كلكتة . [الأعمال الكاملة ص ٣٤٨]

كما أن الجمعية - في ختام اجتماعاتها - «تسأل الله تعالى
أن يوفق ملوك المسلمين وأمراءهم للتعصب في الدين، وللحزم
والعزم عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلى أن يرث الله الأرض
ومن عليها» [الأعمال الكاملة ص ٣٥٨].

فأين من ذلك هذه العلمانية التي يزعمون»

٢ - إن الكواكبي - في العديد من صفحات آثاره الفكرية - يتحدث
عن المنهج الإسلامي في الإصلاح وعن نظام الحكم -
ويسميه «الإسلامية»، ويقول: «إن هذه الإسلامية هي التي
قدمت الحل لمعضلة الاستبداد العالي، وذلك عندما أحدث
الإسلام سنة الاشتراك على أتم نظام، وعندما أسست
الإسلامية حكومة أرستقراطية المبنى، ديمقراطية الإدارة
فوضعت للبشر قانوناً مؤسساً على قاعدة أن المال هو قيمة

الأعمال، ولا يجتمع في يد الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والخذاع، وعندما قررت - هذه الإسلامية - أن تكون الأراضي والأملاك الثابتة وآلاف المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الأمة، وأن الأعمال والثمرات تكون موزعة بوجود متقاربة بين الجميع، وأن الحكومة تضع قوانين لكافة الشئون حتى الجزئيات، وتقوم بتنفيذها. وهذه الأصول، مع بعض التعديل، قررتها الإسلامية دينًا. وقررت الإسلامية ترك الأراضي الزراعية ملكًا لعامة الأمة، يستثبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط. كما جاءت الإسلامية بقواعد شرعية كلية تصلح للاحاطة بأحكام كافة الشئون حتى الجزئية الشخصية، وأناطت تنفيذها بالحكومة. [الأعمال الكاملة ص ١٧١، ١٧٢]

فهو - كمصلح إسلامي - يلتمس أصول الإصلاح وفلسافته وقوانينه من الإسلامية. ومن التجارب التاريخية لتطبيقات الإسلامية في الاجتماع الإسلامي.

وفي موطن آخر من مواطن حديث الكواكبي عن نماذج الإصلاح، يتحدث عن الإسلامية، التي أقامت «حكومة قضت بالتساوي بين الحاكمين وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشغلها، فأحدثوا في المسلعين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون باعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة. وهذا هو الطراز السامي النبوي

الذي تناقصر عبر التاريخ والذي يجب أن تستعوضه الأمة بطراز
سياسي شوري - [الأعمال الكاملة ص ١٤٤، ١٤٥]

قال المثل الإسلامي هو الحاضر - دائما - في فكر الكواكبي،
عندما يبحث عن نموذج الإصلاح الذي يسعى إليه

٣ - وفي محاربة الاستبداد، بلغت الكواكبي الأنظار إلى المصدر
القرآني « فهذا القرآن الكريم مسحور بتعاليم إمارة
الاستبداد وأحياء العدل والتساوي، حتى في القصص منه »

وبعد إيراد العديد من الآيات القرآنية الشاهدة على هذه
الحقيقة، يعقب قائلا « وبناء على ما تقدم، لا مجال لرمي
الإسلامية بتأييد الاستبداد، مع تأسيسها على منات من أمثال
هذه الآيات البينات فالإسلامية مؤسسة على أصول الحرية،
برفعها كل سيطرة وتحكم، وبأمرها بالعدل والمساواة والقسط
والإخاء، وبحضنها على الإحسان والتحابب - [الأعمال الكاملة
ص ١٤٥، ١٤٧]

٤ - وإذا كان الكواكبي مسلما سلفيا، أي يدعو إلى العودة - في
الدين ونموذج الإصلاح الإسلامي ومرجعياته - إلى المنابع
الجوهرية النقية الأولى والأصلية للإسلام، فيقول: « يجب أن
نترك جانبا اختلاف المذاهب التي نحن متبوعها تقليداً وأن
نعتمد ما نعلم من صريح الكتاب، وصحيح السنة، وثابت
الاجماع، وذلك لكيلا ننفرق في الآراء، وليكون ما نقرره

مقبولاً عند جميع أهل القبلة، إذ إن مذهب السلف هو الأصل الذي لا يرد، ولا تستنكف الأمة أن ترجع إليه، وتجتمع عليه في بعض أمهات المذاهب وأن نجتمع على ما نفهمه من النصوص، أو ما يتحقق عندنا حسب طاقتنا أنه جرى عليه السلف، وبذلك نتحد وجهتنا، [الأعمال الكاملة ص ٢٤١]

كما أن الجمعية، التي كونها مؤتمر «أم القرى» - جمعية تعليم الموحدين - قد نصت لانتحتها - في الفصل الثاني - المادة ١٦ على أن «توفق الجمعية مسلكها الديني على المنسوب السلفي المعتدل» [الأعمال الكاملة ص ٣٤١]

إذا كان هذا هو الكواكبي المسلم السلفي فكيف يكون علمانياً؟

٥ - وإذا كان العلمانيون - وأشباههم - قد نظروا بإعجاب وإيجابية إلى «التنظيمات العثمانية» التي اتجهت فيها الدولة العثمانية غرباً - منذ أواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر - عندما أخذت في استعارة النموذج الغربي وتقليده، فإن الكواكبي كان على العكس من موقف هؤلاء العلمانيين، فلقد رأى في هذا التوجه فقداناً للأصالة الإسلامية التي نشأت عليها الدولة العثمانية، مع العجز عن التقليد للغرب، أو الإبداع لما هو جديد، ولقد جعل الكواكبي هذا السبب - التخريب - «أول أصول موارد الخلل في السياسة والإدارة الجاريتين في المملكة العثمانية» التي هي أعظم دولة بهم

شأنها عامة المسلمين. وقد جاء أكثر هذا الخلل في الستين سنة الأخيرة. أي بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها فعملت أصولها القديمة. ولم تحسن التقليد والإبداع.

ولذلك كانت الحالة في الدولة قبل التنظيمات الخيرية « خيرا منها بعدها » [الأعمال الكاملة ص ٣٢٠. ٣٢١].

كما ذكر الكواكبي أن من أسباب الخلل في الدولة العثمانية « تضبيع حرمة الشرع بتعطيل أحكامه » [الأعمال الكاملة ص ٣٢٢]

كذلك كان الكواكبي عدواً للإعجاب بالأجانب وتقليدهم - الأمر الذي يباعد بينه وبين العلمانية، التي هي تقليد للنموذج الأجنبي الغربي في علاقة الدين بالدولة - فهو القائل - دفاعاً عن تميز الهوية العربية الإسلامية: « إن من أقبح آثار الخور الاندفاع لتقليد الأجانب واتباعهم فيما يظنونهم رقة وظرافة وتمدناً كاستحسان ترك التعصب في الدين والافتخار به. والاستحياء من الصلاة في غير الخلوات، وإهمال التمسك بالعادات القومية والقعود عن النناصر والتواحم. كي لا يتسم من ذلك راحة التعصب الديني. وإن كان على الحق » [الأعمال الكاملة ص ٣٣٠]

وهو الداعي شباب الأمة الإسلامية إلى « أن يفخروا بدينهم، فيحرصوا على القيام بمبادئه الأساسية. وأن يحبوا حياة قوم كل فرد منهم سلطان مستقل في شئونه لا يحكمه غير الدين »

كما بهاجم « الناشئة المتفرنجة: لأنهم لا خلاق لهم يتكاسلون عن الصلاة التي هي عماد الدين مع أن الطهارة والوضوء هما - بمنطقهم ولسانهم - عين « التوالت » أو بعضه.. وأفعال الصلاة هي عين « الجمنستيك » وأكمل منه. مع أن الصلاة والصوم لو لم يكن فيهما غير أنهما شعار يعرف بهما المسلم أخاه لكفى. ولذلك كان من حكمة الشرع حظره ترك سنة الأسلاف وتقليد الأعيار ولو في اللباس » [الأعمال الكاملة ص ٣٣٠، ٣٣١]

٦ - وإذا كان الذهاب لاستقصاء نصوص الكواكبي التي تحل من الإسلامية النموذج والفلسفة للإصلاح، قد يستدعى ملء الصفحات العديدة بهذه النصوص، الأمر الذي يخرج بهذه الدراسة عن إطارها. فإن الكواكبي قد ذهب - فوق ذلك - إلى نقد الحكماء الغربيين الذين استبعدوا الدين من مناهج الإصلاح والترقى والنهوض.. ورأى أن هذا التوجه الغربي - العلماني - إنما مرجعه طبيعة الدين النصراني المخالفة لطبيعة الإسلام.. فإذا كان هناك عذر لهؤلاء الحكماء الغربيين في التوجه إلى العلمانية، فإن النصرانية هي السبب.. ومن ثم فلا عذر ولا مبرر لاختيار العلمانية - التي تستبعد الدين من المرجعية الإصلاحية.. في ظلال الإسلام.

لقد طرق الكواكبي أبواب هذه القضية، فقطع الطريق على أية محاولة لاتهامه بالعلمانية. وذلك عندما قال عن سبل الإصلاح:

«لقد سلك الأنبياء، عليهم السلام، في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق مسلك الابتداء أولاً بفك العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه، وذلك بتقوية حس الإيمان المفطور عليه وجدان كل إنسان، ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته، أي حريته في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منبع الفساد

ثم بعد إطلاق زمام العقول، صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنه مكلف بقانون الإنسانية ومطالب بحس الأخلاق، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقتنع وبث التربية التهذيبية

والحكماء السياسيون الأقدمون، اتبعوا الأنبياء، عليهم السلام، في سلوك هذا الطريق وهذا الترتيب، أي بالابتداء من نقطة دينية فطرية تؤدي إلى تحرير الضمائر، ثم باتساع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع

أما المتأخرون من قادة العقول في الغرب، فمنهم فئة سلكوا طريق الخروج بأصمهم من حظيرة الدين وأدابه النفسية إلى فضاء الإطلاق وتربية الطبيعة. زاعمين أن الفطرة في الإنسان أهدي به سبيلاً، وحاجته إلى النظام تغنيه عن إعانة الأديان، التي هي كالمخدرات، ستم تعطل الحس بالهموم. ثم تلازم بالحياة فيكون ضررها أكبر من نفعها

وقد سبق هؤلاء الغلاة فئة اتبعت أثر النيبين، ولم تحفل بطول الطريق، وتعبه، فتجحت ورسخت. وأعتى بتلك الفئة أولئك

الحكماء الذين لم يأنوا بدين جديد، ولا تمسكوا بمعاداة كل دين كمؤسسى جمهورية الفرنسيين، بل رتقوا فتوق الدهر فى دينهم بما نطقوا وهذبوا وسهلوا وقربوا، حتى جددوا، وجعلوه صالحاً لتجديد خليق أخلاق الأمة».

فى هذا النص يحدد الكواكبي منهجين للإصلاح

١ - منهج الأنبياء، والحكماء الأقدمين الذين اتبعوا منهاج الأنبياء فى الإصلاح بالدين، والابتداء فى الإصلاح من نقطة دينية فطرية تؤدى إلى تحرير الضمائر.

٢ - ومنهج «قادة العقول» أى أصحاب العقلانية المجردة من الدين الذين «سلكوا طريق الخروج بأسمهم من حظيرة الدين وأدابه النفسية، إلى فضاء الإطلاق وثرية الطبيعة».

ولقد حجب الكواكبي عن أصحاب هذا المنهج - العلماني - صفة «الحكماء».

ثم تحدث عن الغلاة منهم، الذين أسسوا الجمهورية الفرنسية على العلمانية، بدلاً من أن يسلكوا طريق الحكماء فى تجديد الدين حتى تتجدد به أخلاق الأمة

وبعد هذا التحديد والتمييز لمناهج الإصلاح - الإصلاح بالدين، أو الإصلاح العلماني اللاديني - دعا الكواكبي الشرقيين إلى طريق الإصلاح بالدين المتجدد، فقال: «ما أحوج الشرقيين أجمعين إلى حكماء يجددون النظر فى الدين فيرجعون به إلى

أصله المبين البريء من حيث تملك الإرادة، ورفع البلادة من كل ما يشين، [فهو] المخفف شقاء الاستبداد والاستعباد، المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين، لقيام التربية الحسنة، واستقرار الأخلاق المنتظمة، مما به يصير الإنسان إنساناً، وبه - لا بالكفر - يعيش الناس إخواناً».

وبعد تحديد الكواكبي للمسلمين وعموم الشرقيين طريق الدين لا الكفر.. طريق التجديد الديني لا العلمانية والغلو العلماني - سبيلاً للتقدم والنهوض والترقي، حذر الشرقيين من طريق الغرب - طريق العلمانية اللادينية - فقال «ليس من شأن الشرقي أن يسير مع الغربي في طريق واحدة، فإن طباعه لا تطاوعه على استباحة ما يستحسنه هذا الغربي» [الأعمال الكاملة ص ١٨٤-١٨٧]

تم يعود الكواكبي إلى تأصيل تمايز طريق النهضة الإسلامية عن طريق النهضة الغربية، لافتاً الأنظار والأفكار إلى أن مرجع هذا التمايز والاختلاف هو تميز الإسلام عن النصرانية.. قطيعة الإسلام الشاملة مغايرة لطبيعة النصرانية - التي وقفت عند الفرد وخلص الروح.. وعقلانية الإسلام مناقضة للعقلانية النصرانية الغربية.

نعم.. لقد عاد الكواكبي إلى تأصيل تمايز طرق الإصلاح والنهوض في الشرق الإسلامي عنها في الغرب النصراني، فقال «إن بعض الاجتماعيين في الغرب يرون أن الدين يؤثر على الترقى الأفرادي ثم الاجتماعي تأثيراً معطلاً، كفعل الأفيون في

الحس، أو حاجبًا، كالغيم يغطي نور الشمس، وهناك بعض الغلاة يقولون الدين والعقل ضدان متراخمان في الرعوس، وإن أول نقطة من الترقى تبدئ عند آخر نقطة من الدين، وإن أصدق ما يستدل به على مرتبة الرقى والانحطاط في الأفراد أو في الأمم الغابرة، والحاضرة، هو مقياس الارتباط بالدين قوة وضعفا

وهذه الآراء كلها صحيحة لا مجال للرد عليها، ولكن بالنظر إلى الأديان الخرافية أساسًا أو التي لم تقف عند حد الحكمة، كالدين المبني على تكليف العقل بتصور أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد لأن مجرد الإنعان لما لا يعقل برهان على فساد مراكز العقل. ولهذا أصبح العالم المتمرد يعد الانتساب إلى هذه العقيدة من العار لأنه شعار الحمق

أما الأديان المبنية على انعفل المحض، كالإسلام الموصوف بدين الفطرة، الإسلام دين القرآن، أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل إنسان غير مقيد الفكر، فلا شك أن الدين إذا كان مبنياً على العقل، يكون أفضل صارف للفكر عن الوقوع في مضائد المخرفين، وأنفع وأزعر بضبط النفس من الشطط، وأقوى مؤثر لتهديب الأخلاق، وأكبر معين على تحمل مشاق الحياة، وأعظم منسبط على الأعمال المهمة الخطرة، وأجل مثبت على المبادئ الشريفة، وفي النتيجة، يكون أصح مقياس يستدل به على الأحوال النفسية في الأمم والأفراد رقيًا وانحطاطًا. «
[الأعمال الكاملة ص ٢٠٠ - ٢٠٢]

هكذا أشبع الكواكبي القضية بحثًا وتمحيصًا.. فلم يكتف بالانحياز - عبر الصفحات العديدة من آثاره الفكرية - إلى منهاج الإصلاح بالإسلام وإنما انتقد العلمانية الغربية وغلوها اللاديني.

معلمًا أنه إذا جاز أن يكون لها ما يبررها في ظلال البصراية - التي تدع ما لقيصر لقيصر، مكتفية بما لله - أي بالخلاص الفردي للروح - فإن هذه العلمانية لا مبرر لها.. ولا حاجة إليها ولا يمكن أن تكون مقبولة في ظلال الإسلام.

لقد كان الكواكبي صديقًا للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وصديقًا للإمام الشيخ محمد رشيد رضا، وحنن نجد في آثاره الفكرية العديد من الشواهد على أنه كان علمًا متميزًا في مدرسة الإحياء الديني، التي أرادت تجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام.. والتي أعلنت عن أولوية النهضة الدينية «ليأتي النظام السياسي تبعًا للدين» - كما يقول الكواكبي (الأعمال الكاملة ص ٣٦١) - «لأن الإصلاح - كل الإصلاح - إنما يكون - أولاً وأخيرًا - بالإسلام.. وليس بالعلمانية التي تستبعد الإسلام..»

كان ذلك هو القاسم المشترك بين أعلام هذه المدرسة الإحيائية:

■ ولقد قرأناه عند رفاة الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٣ م) في نقده للعلمانية اللادينية وفلسفتها الوضعية - التي رآها وخبرها في باريس - الذي قال:

أيوجد مثل باريس ديار

شموس العلم فيها لا تغيب

وليل الكفر ليس له صباح

أما هذا وحققكم عجيب

فهذه المدينة، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفريق العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات. وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه ولا غيرة له عليه، بل هو من الغرق المحسنة والعقبة بالعقل. أو فرقة من الأساحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب. ولذلك، فهو لا يصدق بشيء مما في كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية.

وبعد رقص الطهطاوي لهذه النموذج العربي في الفلسفة الوضعية. وفي الموقف من الدين ومن الانحياز إلى الطبيعة في مواجهة الدين. أعلن الانحياز للنموذج الإسلامي والمرجعية الإسلامية في الإصلاح والتقدم والنهوض. فقال

«إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع والتكاليف الشرعية والسياسة، التي عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات. لأن التشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة

المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه
وليس لنا أن نعتد على ما بحسنه العقل أو بقبحه إلا إذا ورد
الشرع بتحسينه أو تقبيحه.

والذي يرشد إلى تركية النفس هو سياسة الشرع. ومرجعها
الكتاب العزيز الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول. مع
ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام
أحوال الخلق. كشرع الزواجر المفضية إلى حفظ الأديان، والعقول
والأنساب، والأموال، وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه
يحصل به الغرض. كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامها،
فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى

ولا عبرة بالنفوس القاصرة. الذين حكموا عقولهم بما
اكتسبوا من الخواطر التي ركنوا إليها تحسناً وتقبيحاً، وظنوا
أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود.

فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع. لا بطرق
العقول المجردة

ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء
المفاسد. ولا يناقض المتجددات المستحسنة التي يخترعها من
منحهم الله العقل والهمم الصناعة

وإن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما
أخلت بالحقوق. بتوفيقها على الوقت والحالة

ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو
من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية.

إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشاريعه، لم يغادر من
أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي
والري. ولم تخرج أحكام السياسة عن المذاهب الشرعية لأنها
أصل. وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة القرع

وإن مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط - بعد ولي الأمر
- بهذه العصاية - عصية طلاب الأزهر وعلمائه - التي ينبغي
أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر

(أ) السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة

(ب) معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التي لها مدخل
في تقدم الوطنية...^(١)

هكذا أعلن الطهطاوي في حُسن وعمق ووضوح - انحيازَه إلى
المرجعية الإسلامية في الإصلاح والتقدم والنهوض، بعد أن
رفض النموذج الوضعي الغربي عن وعي يأوجه الخلاف بينه
وبين النموذج الإسلامي

(١) [الأعمال الكاملة لرباعة الطهطاوي] ج ١ ص ٣٦٩، ٣٧٠، ٥٣٣، ٥٤٤، ج ٢ ص
٣٢، ٧٩، ١٥٩، ١٦٠، ٣٨٦، ٣٨٧، ٤٧٧ دراسة وتحقيق - محمد عمارة - طبعة
بيروت - ١٩٧٣ م

فلما جاء جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤-١٣١٤هـ/ ١٨٣٨-
١٨٩٧م] كانت دعوته وحركته التأسيس للتيار الإحيائى
للإسلام، والذي غدا عبوانا على نقد النموذج الغربى فى
التحديث وعلى الانحياز إلى النموذج الإسلامى فى الإصلاح
وفى ذلك كتب فقال

« انه لا ضرورة فى إيجاد المنفعة إلى اجتماع الوسائط وسلوك
المسالك التى جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية ولا ملحق
للتسرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوربي فى نهايته بل ليس
له أن يطلب ذلك وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه -
[من دعاة التحديث على النمط الغربى] فقد أقر - [عجز] -
نفسه وأمتة وقرا وأعجزها وأعوزها.

لقد شيد العثمانيون عددا من المدارس على النمط الجديد.
وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما
يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والأداب، وكل ما يسمونه
«تعدنا»، وهو، فى الحقيقة، تعدن للبلاد التى نشأ فيها على
نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى.

فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من
ذلك، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ نعم، ربما وحد بينهم
أفراد يتصدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها.
وسموا أنفسهم زعماء الحرية. ومنهم آخرون قلبوا أوضاع
المبانى والمساكن وبذلوا هبات الماكل والملابس والفرش

والآتية، وسائر الماعون، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية. وعدوها من مفاخرهم. فنقوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم. وأمانوا أرباب الصنائع من قومهم. وهذا جدرع لألف الأمة، يسوء وجهها. ويحط بشأنها.

لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطلّاع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات. يمهّدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم.

إن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى لبسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها، وإنما هم حملة نقلها لا براعون فيها النسبة بينها وبين مشارب الأمة وطباعها. وهم ربما لا يقصدون إلا خيلاً، إن كانوا من المخلصين. لكنهم يوسعون بذلك الخروق حتى تعود أبوابا لتدخل الأجانب فيهم تحت اسم النصحاء، وعنوان المصلحين، وطلّاب الإصلاح، فيذهبون بآمتهم إلى الفناء والاضمحلال، وينس المصير.

إن نتيجة هذا التقليد للتمدن الغربي عند هؤلاء الناشئة المقلدين ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم، فيبالغون في تطمين النفوس، ونسكين القلوب حتى يزيلوا الوحشة التي قد بصور بها الناس حقوقهم، ويحفظون بها استقلالهم ولهذا، متى طرق الأجانب أرضاً لأمة تر هؤلاء المتعلمين - المقلدين - فيها أول من يقبلون عليهم ويعرضون

أنفسهم لخدمتهم كأنما هم منهم، ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم أعظم بركة عليهم»^(١).

ويعد هذا النقد اللاذع - إلى حد الاتهام بالعمالة - للمقلدين للنموذج الغربي في التصدن والتحديث ذهب جمال الدين الأفغانى إلى الحديث عن «التدليل الحضارى الإسلامى» المنطلق من مرجعية الدين الإسلامى فى النهضة والإصلاح.. فقال:

«إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها. ولقد أكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع نفوسهم ثلاث خصال، كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدنيتها، وفى كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرفى إلى ذرى السعادة، ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر، ويزعها عن مقارفة الفساد، ويصدها عن مقاربة ما يبئدها ويبئدها

العقيدة الأولى التصديق بأن الإنسان ملك أراضى، وهو أشرف المخلوقات.

والثانية يقين كل نبي دين بأن أمة أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل.

(١) [الأعماى الكاملة لجمال الدين الأفغانى] عن ١٩٩ - ١٩٧، ٥٢٣ دراسة وتحقيق لـ محمد عمارة، طبعة القاهرة - سنة ١٩٦٨م

والثالثة جرّمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي.

فلم تبق ريبّة في أن الدين هو السبب المفرد لسعادة الإنسان ولو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق، ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه، فلا ريب أنه سيكون سبباً في السعادة النامة والنعيم الكامل، ويذهب بمعتقديه جواد الكمال الصوري والمعنوي، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهري والباطني، ويرفع أعلام المدنية لطلابها، بل يفيض على التمدين من ديم الكمال العقلي والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين.

لا أطيل عليك بحثاً، ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط بالوسائل، أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد نباهة، واطلب أسباب نهوضها الأول. إنه دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مذكّ للنفوس، مظهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان، من مبادئ الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة، ولها وردت وعنها صدرت، فما نراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من

طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً. فعلاجها الناجع إنما يكون
برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامها على ما كان في
بدايته. ولا سبيل لليأس والقنوط، فإن جرائم الدين متصلة
في النفوس والقلوب مطمئنة إليه. وفي زواياها نور خفي من
محبتها. فلا يحتاج القانم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة
يسرى نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت. فإذا قاموا، وجعلوا
أصول دينهم الحقّة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا في
سيرهم منتهى الكمال الإنساني.

ومن طلب إصلاح أمة تسأها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد
ركب بها شططا، وجعل النهاية بداية، وانعكست القرية وانعكس
فيها نظام الوجود، فبتعكس عليه القصد. ولا يزيد الأمة
إلا نحسا، ولا يكسبها إلا نعسا.

ومن يعجب من قولي إن الأصول الدينية الحقّة تنشى للأمم
قوة الاتحاد، وانتلاف الشغل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة،
وتبعثها على اقتناء الفضائل، وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهي
بها إلى أقصى غاية في المدنية، فإن عجبى من عجيبة أشد.

ودونك تاريخ الأمة العربية. وما كانت عليه قبل الإسلام من
الهمجية. حتى جاءها الدين فوحدها، وقواها، ونور عقلها، وقوم
أخلاقها. وسدد أحكامها. فسادت على العالم.

(١) المصدر السابق ص ١٣١، ١٤١، ١٧٣، ١٩٧ - ١٩٩

هكذا صاغ جمال الدين الأفغانى - لحركة الإحياء الإسلامى -
« بيان الإصلاح بالإسلام »

■ أما الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]
فكان المهندس الأول الذى فصل الحديث فى هذا الاتجاه -
الإصلاح بالإسلام

لقد انتقد مادية المدنية الغربية فقال

« إن هذه المدنية هى مدنية الملك والسلطان، مدنية الذهب
والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق.
وحاكمها الأعلى هو « الجنبه » عند قوم، و « الليرا » عند قوم
آخرين، ولا محل للإنجيل فى شيء من ذلك »

وتعجب من فلاسفتها وعلمائها « الذين اكتشفوا كثيرا مما
يغيب فى راحة الإنسان وتوفير راحته، وتعزيز نعمته ثم
أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الإنسان، ويعرضوها على الإنسان
حتى يعرقها فيعود إليها. لقد صقلوا المعادن حتى كان
الحديد اللامع المضيء، أفلا يتيسر لهم أن يجعلوا ذلك الصدا
الذى غشى الغطرة الانسانية، ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود
لها لمعاتها الروحية »

لقد حار الفيلسوف « هربرت سبنسر » [١٨٢٠ - ١٩٠٣ م] فى
حال أوربا، وأظهر عجزه مع قوة العلم فأبين الدواء « أنه

الرجوع إلى الدين. الدين هو الذي كشف الطبيعة الإنسانية. وعرفها إلى أربابها في كل زمان. لكنهم يعودون فيجهلون^(١١).

وبعد هذا النقد لمادية المدنية الغربية، تلك المادية التي أعجزتها عن اكتشاف التدين الفطري للإنسان، تحدث الإمام محمد عبده عن وسطية الإسلام، التي جعلته دين الفطرة الإنسانية السوية. وعن تفرد بكونه المنهاج الأول والأفضل في الإصلاح.. فقال:

«لقد ظهر الإسلام، لا روحياً مجرداً، ولا جسدياً جامداً بل إنسانياً وسطاً بين ذلك. أخذاً من كلا القبيلين بنصيب. فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره. ولذلك سمي نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصوصاً اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية. لقد جاء الإسلام كاملاً للشخص، وألفاً في البيت. ونظاماً للفلك. امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه»^(١٢).

ثم تحدث عن الإسلام كسبيل مفر من التثاقص والانهوض والإصلاح فقال:

«إن أهل مصر قوم أذكىاء. يغلب عليهم لين الطباع، واشتداد القابلية للتأثر. لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية، وهي أن البزرة لا

(١١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٢٠٥ - ١٩٥ دراسة وتحقيق

د. محمد عمارة - طبعة بيروت - سنة ١٩٧٢ م

(١٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٨٩

تنبت في أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض، ويتنفس بهوائها، وأما ماتت البذرة، بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها، ولا على البذرة وصحتها، وإنما العيب على البادر. أنفس المصريين أشريت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعها فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للثروة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع ثعبه، ويخفق سعبه، وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد على (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ/ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) إلى اليوم فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا وإن قيل إن لهم شيئا من المعلومات - فما لم تكن معارفهم وأدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

إن سبيل الدين، لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عند من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا

وإذا كان الدين كافلا بتهديب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهلها من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا أمام لهم به، فكم العدول عنه إلى غيره "١١

(١١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٦ ٢٣١

هكذا تبلور في شرقنا الإسلامي تيار «الإصلاح بالإسلام»..
في مواجهة تيارات «التحديث على النمط الغربي».. منذ بدايات
الاحتكاك بيننا وبين النموذج الحضاري الغربي، الذي جاءنا في
ركاب الغزوة الأوربية الحديثة..

ونألق في هذا الميدان أعلام للإحياء الإسلامي، من مثل
الشيخ حسن العطار إلى رفاعة الطهطاوي، إلى جمال الدين
الأفغانسي، وحتى المهندس الأكبر لهذا التيار، الأستاذ الإمام
الشيخ محمد عبده، الذي تكوّن من حول مشروعه الإصلاحى
أكبر المدارس الفكرية، الممتدة أغصانها حتى هذه اللحظات

وهى المدرسة التى كان الكواكب علمًا متميزًا بين أعلامها
العظام. وليس - كما زعم أنطون سعادة، و«جان داية» - من أنه
كان إمام العلمانية فى فكرنا الحديث!

المصادر والمراجع

- ١- الأفغانى، [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق. د محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م
- ٢- أنطون سعادة، [الأثار الكاملة] - طبعة سنة ١٩٤٠ م
- ٣- جان داية [الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة] - طبعة المملكة المتحدة - سنة ١٩٨٨ م.
- ٤- الطهطاوى [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م
- ٥- عبد الرحمن الكواكبي [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م
- ٦- د. محمد حميد الله (محقق) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] - طبعة القاهرة - سنة ١٩٥٦ م.
- ٧- محمد رشيد رضا: [مجلة المنار] سنة ١٢١٧ هـ و ١٣٢٠ هـ
- ٨- محمد عبده [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق. د. محمد عمارة - طبعة بيروت - ١٩٧٢ م

الفهرس

٣	تقديم
٦	١- بطاقة حياة
١٠	٢- دعوى علمانية الكواكبي
٣١	٣- الإسلام والعلمانية
٣٩	٤- الكواكبي والفصل بين السلطتين
٤٣	٥- الرفض الكواكبي للعلمانية
٦٧	المصادر والمراجع
٦٨	الفهرس

سلسلة «في التنوير الإسلامي»

١. المحمود الإسلامي في عيون عربية
٢. العرب والإسلام
٣. أبو حنبل، التنوير
٤. دراسة قرآنية في عهد النهضة الحجازي
٥. ابن رشد بين العرب والإسلام
٦. الانتماء الثقافي
٧. تفسير العالم
٨. النهضة الشوية الإسلامية والتجديد
٩. عراق التوحيد بين العرب والإسلام
١٠. يوسف القضاة في الصرخة الفكرية والنشوة الفكرية
١١. تأملات في التفسير الحجازي لقرآن الكريم
١٢. عبد الله بن محمد بن عبد الله
١٣. الحركة الإسلامية رؤية نقدية
١٤. السباح الغفلي
١٥. المذبح الثقافي
١٦. منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق
١٧. تحديات الدنيا لتحديد الدين
١٨. التوابت والمعجزات في العقيدة الإسلامية الحديثة
١٩. نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم
٢٠. التقدم والإصلاح بالتنوير العربي أم بالعنصرية
٢١. فكرة حركة الأممية وثقافتها
٢٢. حرية التعبير في الغرب من خلال رؤية إلى رؤية عربية
٢٣. إسلامية الصراع حول القدس وتفسير
٢٤. الحصار على العائلة تدافع أدبيات
٢٥. التنمية الاجتماعية بالعربية أم بالإسلام
٢٦. الحملة الفرنسية في الجزائر
٢٧. الإسلام في عيون عربية دراسات عربية
٢٨. الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة أم تغليب واختلاف
٢٩. ميراث المرأة وقضية المساواة
٣٠. ثقافة المرأة وقضية المساواة
٣١. الدين والثقافة والعائلة والتنمية والحداثة

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. صلاح الدين

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. محمد عماره

أ. صلاح الدين

أ. صلاح الدين

أ. محمد عماره

٣٢- مخاطر العولمة على الهوية الثقافية	د محمد عمارة
٣٣- الغناء والموسيقى خلال أم حوام؟	د محمد عمارة
٣٤- صورة العرب في أمريكا	ترجمة وتحقيق / أ. ثابت عبد
٣٥- هل المسلمون أمة واحدة؟	د محمد عمارة
٣٦- السنة والدعة	تقديم وتحقيق / د محمد عمارة
٣٧- الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان	تقديم وتحقيق / د محمد عمارة
٣٨- قضية المرأة بين التحرير والتحرر حول الأمتي	د عبد الوهاب المسيري
٣٩- مركسة الإسلام	أ. منصور أبو شافعي
٤٠- في الإسلام كما تؤمن به صواب وملاح	د يوسف القرضاوي
٤١- صورة الإسلام في التراث العربي	لوريم / أ. ثابت عبد
٤٢- تحليل الواقع بمناهج لغاهات العرومة	د محمد عمارة
٤٣- القدس من اليهودية والإسلام	د محمد عمارة
٤٤- مآرق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألعانية)	تقديم وتحقيق / د محمد عمارة
٤٥- الآثار التربوية للعبادات في الروح والأخلاق	د صلاح الدين سلطان
٤٦- الآثار التربوية للعبادات في العقل والجسد	د صلاح الدين سلطان
٤٧- السنة النبوية والمعرفة الإنسانية	د محمد عمارة
٤٨- نظرات حصارية في القصص القرآني	د سيد بسولي
٤٩- الحوار بين الإسلاميين والعلمايين	د محمد عمارة
٥٠- الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان	تقديم / د محمد سليم العوا
٥١- عن القرار الكريم	الشيخ / أمين انغولي
٥٢- في فقه الأتليات المسلمة	د طه جابر عوان
٥٣- مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية	د محمد عمارة
٥٤- مركسة التاريخ	أ. منصور أبو شافعي
٥٥- نقل الأعضاء في ضوء الشريعة والقانون	د سنان / طارق المشري
٥٦- السنة التشريعية وغير التشريعية	محمد الفاضل بن عاشور
٥٧- طيهات حول الإسلام	الشيخ / علي الخفيف
٥٨- نحو طق تقسي إسلامي	د محمد عمارة
٥٩- واقعنا بين العالمية ونضاد الحصارات	د وائل أبو غسني
٦٠- بناء المفاهيم الإسلامية	عفة مفتي العويش
٦١- المستقبل الاجتماعي للأمة الإسلامية	د سيف الدين عبد الفتاح
٦٢- شهادت حول القرآن الكريم	د محمد عمارة

٦٣- أوبة العغل العربي

٦٤- في التحرير الإسلامي للمرأة

٦٥- روح الحضارة الإسلامية

٦٦- الغرب والإسلام اقتراءات لها تاريخ

٦٧- السماحة الإسلامية

٦٨- الشيخ عبد الرحمن الكواكبي هل كان علمانياً؟

٦٩- صلة الإسلام بمصالح المسيحية

٧٠- من التمدد والتحديث

٧١- الوفاء والتمنية المستقلة

٧٢- الرسالة القرآنية والتفسير الحضاري للقرآن الكريم

د. فؤاد زكريا

د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

الشيخ/ محمد الفاضل بن عاشور

تعليق وتقديم/ د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

الشيخ/ أمين المولى

تقديم/ الإمام الأكبر الشيخ/

محمد مصطفى المراغي

تمهيد/ د. محمد عمارة

د. سيف الدين عبد الفتاح

تقديم/ د. محمد عمارة

د. إبراهيم اليموني غانم

تقديم/ د. محمد عمارة

د. سيد سموي حسن



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع : www.enahda.com



إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني، يستبدل العقل بالدين، ويقيم قطيعة مع التراث.

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي : لأن الله والقرآن والرسول - صلى الله عليه وسلم - أنوار تصنع للمسلم تنويراً إسلامياً متميزاً.

ولتقديم هذا « التنوير الإسلامي » للقراء، تصدر هذه السلسلة، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر:

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| • د. محمد عـبارة | • المستشار/ طارق البشري |
| • د. سيف عبد الفتاح | • د. محمد سليم العوا |
| • أ. فهمي هويدي | • د. يوسف القرضاوي |
| • د. سيد دسوقي | • د. كمال الدين إمام |
| • د. عبد الوهاب المسيري | • د. شريف عبد العظيم |
| • د. عادل حسـين | • د. صلاح الدين سلطان |

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح : لإزالة العقل بأنوار الإسلام.

الناشر

